معلقة عمرو بن كلثوم

عمرو بن كلثوم هو ابن أسماء بنت المهلهل (الزير سالم). ونحن نعرف المهلهل أخا كليب الذى يضرب به المثل فى العزة. والمهلهل صاحب سيرة شعبية ملحمية انتقلت شهرة صاحبها إلى حفيده عمرو بن كلثوم. وتصبح قصة عمرو بن كلثوم أشبه بنواة ملحمة لم تكتمل لأنها نابعة عن شهرة الجد العظيم الذى شكلت حياته ملحمة بالفعل. إن المهلهل الزير سالم يتزوج من هند بنت عتيبة «أو بنت بعج بن عتبة»، وتحمل فتنجب جارية، فيغضب المهلهل ويطلب من زوجته قتل المولودة. وعندما ينام يأتيه هاتف فى منامه يقول له:

كم من فتى مؤمل وسيد شمردل
وعدد لا يجهل فى بطن بنت مهلهل

فاستيقظ فقال: أى ابنتى! فقالت زوجته: قتلتها! ويظهر أن الأم لم تقتل الأبنة فيرعاها المهلهل أحسن رعاية ويسميها أسماء أو ليلى (أو كلا الإسمين)، وتكبر ليلى بنت المهلهل ويتزوجها كلثوم بن مالك، وتحمل بعمرو فيأتيها هاتف فى منامها:

يالك ليلى من ولد يقدم إقدام الأسد
من جشم فيه العدد أقول قولا لا فند

وهكذا يولد عمرو بنبوءة شأن كل أبطال الملاحم ثم يأتى الهاتف لأمه من جديد يتنبأ ببطولة الابن وسيادته مبكراً على قومه:

أنا زعيم لك أم عمرو بماجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر وقاص أقران شديد الأسر
يسودهم فى خمسة وعشر

وتتحقق النبوءة ويسود قومه فى تلك السن وينبغ فى القتال والشعر شأن أبطال الملاحم. وتقوم الحروب بين أهله «تغلب» وبين «بكر» ويتم شىء من الصلح على أن يتم تحكيم الملك عمرو بن هند فى أى خلاف يدب، وفى إحدى جلسات التحكيم يلقى عمرو بن كلثوم جزءا من معلقته حيث كان يتحدث باسم قومه فى الجلسة. وتتعدد الروايات حول شكل التحكيم وحول من كان يمثل «بكراً». لكن القصة تستمر حيث يتساءل الملك عمرو بن هند ـ فيما بعد ـ فى جلسة منادمة ـ عمن يأنف من العرب أن

يجعل أمه تخدم أم الملك. يجيبه الحضور: عمرو بن كلثوم لأن أمه بنت المهلهل، ومن هنا ندرك سر تشكل هذه القصة الشعبية التى تحمل صفة الخبر التاريخى.

يستدعى الملك عمراً وأمه، ويجعل الملك أمه تصرف كل خدمها حتى يوجد مبرر لاستخدامها أم عمرو بن كلثوم، ويدخل عمرو بن كلثوم ليجالس الملك كما تدخل أمه ليلى بنت المهلهل لتجالس «هندا» أم الملك (ولا ننسى الأمر الغريب هنا فى أن ينسب ملك جليل لأمه كأنه ابن سفاح مع أن أباه ملك مشهور هو المنذر والد النعمان بن المنذر)[1] وتطلب هند من ليلى طبقًا: ناولينى ياليلى: قالت ليلى (وصارت مثلا): صاحب الحاجة أولى بحاجته، تكرر الطلب من جانب هند وتكرر الرفض من جانب ليلى التى أدركت أنها أحضرت لتستذل فصاحت: وا ذلاه! سمعها عمرو بن كلثوم، فانتزع سيفًا معلقًا فى مجلس الملك وأطاح برأس الملك. ويشتهر عمرو بعد ذلك، ويعيش طويلا إلى أن يبلغ المائة والخمسين، وتشتهر معه معلقته التى بدأها فى قصر بن هند فى مجلس تحكيم وأكملها عند قتله لصاحب القصر. القصة لها دلالة هامة وهى أن المعلقة قصيدة كبرى تتراكم مع الزمن، وأنها ترتبط بشخصيات شبه ملحمية. وأن قصة أم عمرو بن كلثوم مع هند أم الملك عمرو بن هند لا تضفى أى قيمة حقيقية على شخصية عمرو بن كلثوم أو ذلك الملك ابن أمه هند، بقدر ما تجسد شخصية ابنة المهلهل تمتد فى عروقها بطولة أبيها الذى مات دون ولد.

---

(١) يشير ذلك بقوة (مع عشرات الأدلة فى الشعر الجاهلى عامة ولا مجال لسرد تلك الأدلة) إلى قرب العرب الجاهليين من مرحلة تاريخية سابقة سادهم فيها نظام المجتمع الأمومى (نسبة للأم).

وقال عمرو بن كلثوم يذكر أيام بنى تغلب ويفتخر بهم :

(١) أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبَحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

(٢) مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا ... إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

هبى : هب (من نومه) يهب : يستيقظ .

الصحن : القدح العظيم ، تشرب به الخمر .

أصبحينا : اسقينا خمر الصبوح (الصباح الباكر) .

الأندرين : قرية بالشام اشتهرت بالخمر .

مشعشعة : شفافة لكونها كذلك (بسبب نقائها) أو لمزجها بالماء .

الحص : الورس أو الزعفران ، وكلاهما أصفر جيد النكهة .

سخينا : ساخنا ، ولعله يشير لمشهد مزج الماء بالخمر الذى يشبه الغليان .

. . . إننا أمام نص جاهلى نادر المطلع بين المعلقات يخلو من بكاء الأطلال والوقوف بها ، وإن كان يتوجه للمرأة داعيا لها بأن تسقى (الشاعر) الخمر ، غير مدخرة جَيِّدَهَا من خمور الأندرين ، تلك الخمر الرقيقة المشعشعة عند مزجها بالماء تفور وتمور كأنها ساخنة تغلى .

(٣) تَجُورُ بِذِى اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ ... إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا

(٤) تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَّتْ ... عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا

(٥) صَبَنْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

(٦) وَمَا شَرُّ الثَّلاَثَةِ أُمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبِكِ الَّذِى لاَ تُصْبِحِينَا

(٧) وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ ... وَأُخْرَى فِى دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا

(٨) وَإِنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا الْمَنَايَا ... مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدَّرِينَا

(٩) قِفِى قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ظَعِينَا ... نُخَبِّرْكِ الْيَقِينَ وَتُخْبِرِينَا

تجور : تميل وتنحرف .

اللحز : الضيق الصدر واليد .

اللبانة : الحاجة أو الهوى .

الشحيح : البخيل .

لماله مهينا : مبددا ومبذرا كأنه يستهين به .
صَبَنت : منعت (الكأس) عنا أو ملْت به عن اتجاهنا اليمين إلى اليسار ، وتروى : صدرت الكأس . . . .
وما شر الثلاثة أم عمرو : يا أم عمرو ليس ـ ذلك الصاحب ـ أكثر الثلاثة الذين تسقينهم شرا حتى تحرميه من الصبوح . بعلبك ، دمشق ، قاصرين : أسماء مدن مشهورة .
المنايا : جمع منية ، وهى الموت .
ظعينا : أراد : ياظعينة ، فحذف التاء وأطلق فتحة النون ترخيما .
. . . يواصل وصف الخمر . . . إنها تميل بصاحب الهوى العنيد عن هواه حتى يرق ويلين ، وتنحرف بالبخيل عن بخله حتى يصبح كريما مسرفا . . . فلمَ تنحرفين يا أمَّ عمرو بالكأس عنى حيث أجلس يمينا وتذهبين به إلى اليسار ؟ لستُ شر أصحابك الثلاثة فتحرمينى من الصبوح ؛ بل أنا خيرهم معرفة بالشراب لتفرقى فى البلاد فقد شربت كأسا فى بعلبك فى أقصى الجنوب وكأسا فى دمشق وقاصرين فى أقصى الشمال . فلابد من الشرب فسوف يدركنا الموت قدرا علينا كما قدرت علينا الحياة . . . . .
. . . فقفى (ناقتك) قبل الرحيل (أيتها الحبيبة الراحلة) لنخبرك ما نطقنا من يقين : يقين الموت والحياة ولتخبرينا بما لديك من يقين (ولعل الساقية التى يتوجه إليها من أول النص هى الظعينة التى يستوقفها هنا) . وقد يريد باليقين هنا الصدق حول ما قاساه من حبها وهجرها ، والصدق من جانبها عما تحس به عند الفراق .

(١٠) قِفِى نَسْأَلكِ هلْ أَحْدَثْتِ صَرْمًا ... لِوَشْكِ البَيْنِ أَمْ خُنْتِ الأَمِينَا
(١١) بِيَومٍ كَرِيهَةٍ ضَرْبًا وَطَعْنًا ... أَقَرَّ بِهِ مَوَالِيكِ العُيُونَا
(١٢) وَإِنَّ غَدًا وَإِنَّ اليَوْمَ رَهْنٌ ... وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لاَ تَعْلَمِينَا
(١٣) تُرِيكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلاءٍ[1] ... وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الكَاشِحِينَا
(١٤) ذِرَاعَىْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[2]

(١) ويروى : تريك وقد دخلت على خلاء .
(٢) وتروى الشطرة الثانية :
. . . . تربعت الأجارع والمتونا
أى : أرعت الربيع فى الكثبان والسهول .

أحدثت : أتيت بشيء جديد .
صرما : قطيعة ، وتروى : وصلا .
وشك البين : سرعة الفراق أو قرب الفراق .
الأمين : الوفى فى حبه .
كريهة : من أسماء الحرب .
ضربا وطعنا : أى امتلأ ضربا وطعنا .
أقر العيون : سرها وطمأنها .
مواليك : أولاد عمك .
رهن : باق تحت رحمة الغيب .
خلاء : خلوة من الرقباء .
الكاشح : العدو المضمر العداوة .
العيطل : الطويلة (وقيل الطويلة العنق من النوق والظباء) .
أدماء : بيضاء أو بكر .
الهجان : الأبيض الخالص البياض .
لم تقرأ جنينا : لم تحمل قط .

قفى (ناقتك) نسألك : هل أحدثت قطيعة بهذا الفراق السريع العاجل أم أنك خنت حبيبا لا يخون . . . فى يوم قتال عصيب انتصر فيه أولاد عمك فقرت عيونهن ؟ (ولعله يريد نفسه بأولاد عمها) . . . إن الأيام رهن بالغيب (فَلِمَ الفراق من المعلوم إلى غير المعلوم؟) .

. . . . إن تلك الحبيبة (التى ترحل اليوم كانت) إذا دخلتَ عليها خلوة ونامتْ عنك عيونُ الأعداء ، تُريك ذراعى ظبية شامخة الجيد بيضاء بكر خالصة النقاء لم يؤثر فى جمال جسدها حمل سابق . . . . ولعله يريد أن يشير إلى احتفاظها بخصوبة لم تنتهك بالاستهلاك والحمل .

(١٥) وَثَدْيًا مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخْصًا ... حَصَانًا مِنْ أَكُفِّ اللاَّمِسِينَا

(١٦) وَمَتْنَىْ لَدْنَةٍ سَمَقَتْ وَطَالَتْ ... رَوَادِفُهَا تَنُوءُ بِمَا وَلِينَا

(١٧) وَمَأْكَمَةً يَضِيقُ البَابُ عَنْهَا ... وَكَشْحًا قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنُونَا

(١٨) وَسَارِيَتَىْ بَلَنْطٍ أَوْ رُخَامٍ ... يَرِنُّ خَشَاشُ حَلْيِهِمَا رَنِينَا

(١٩) فَمَا وَجَدَتْ كَوَجْدِى أُمُّ سَقْبٍ ... أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتِ الحَنِينَا

حق العاج : صندوق من العاج ، ولَعَلَّهُ مِنَ الحُقِّ المستدير مثل الثدى .
رخصا : لينا .
حصانا : محصنا .
المتنان : جانبا العمود الفقارى أى الظهر عامة .
لدن : لين طرى .

سمقت : طالت وسمت ، وتروى الشطرة : . طالت ولانت .
روادفها : أعجازها فيما يلى المتنين .
تنوء : تنهض من تثاقل أو تحمل غيرها فى مشقة .
يلينا : يليهن من أجزاء الجسم ، وتروى : وليثا .
المأكمة : رأس الورك وجمعها مآكم . كشح : البطن (جانبى السرة) .
السارية : الاسطوانة .
البلنط : العاج وقد يروى : وساريتى رخام أو بلنط .
خشاش : حركة حليهما يدخل بعضه فى بعض .
وجدت : امتلأت بالوجد (الشوق الشديد والحزن) .
أم سقب : يريد الناقة لأن السقب ولد الناقة الذكر عند ولادته .
أضلته : فقدته . رجَّعت : ردَّدت ، والتَّرجيعُ فى الغناء التَّطْرِيبُ .
الحنين : يريد : أصوات الحنين .
. . . وتُريك ثديا فى مثل بياض حق العاج ونعومته وصلابته بل ورنينه . . . ثديا لينا منيعا لا تلمسه أكف اللامسين ، وظهرا لدنا سامقا ، وروادفا عظيمة تنوء بحمل ما يليها من بناء الجسم ، ورأس ورك عظيمة تنطلق من الروادف يضيق الباب عن ضخامتها ، ومع كل ذلك فلها كشح رقيق جميل جننت بجماله كل الجنون ، وساقين اسطوانيتين من عاج أو رخام ترن بها الخلاخيل رنينا مثيرا . . . .
مثل هذا الجمال فارقنى وأتذكره فأحزن وأشتاق حزنا وشوقا يقصر عنهما حزن ناقة فقدت وليدها فراحت تبكى مُصَوِّتَةً تردد أصوات الحنين الحزينة . . . . .

(٢٠) وَلاَ شَمْطَاءُ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا ... لَهَا مِنْ تِسْعَةٍ إِلاَّ جَنِينَا
(٢١) تَذَكَّرْتُ الصِّبَا وَاشْتَقْتُ لَمَّا ... رَأَيْتُ حُمُولَهَا أَصْلاً حُدِينَا
(٢٢) فَأَعْرَضَتِ الْيَمَامَةُ وَاشْمَخَرَّتْ ... كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي مُصْلِتِينَا
(٢٣) أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا
(٢٤) بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رُوِينَا

(٢٥) وَأَيَّامٍ لَنَا غُـرٍّ طِـوَالِ[1] عَصَيْنَـا المَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَـا

(٢٦) وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُوهُ بِتَاجِ المُلْكِ يَحْمِي المُحْجَرِينا

شمطاء : بيضاء الشعر ، ويراد بها المرأة العجوز . شقاها : شقاؤها .

تسعة : تسعة أبناء . جنينا : مستورا فى القبر .

حمولها : ظعائنها أى الإبل إلتى حملتها ، وتروى : حدوجها .

أصلا : أصيلا أى لحظة المساء منذ العصيرة حتى دخول الظلام .

حدينا : ساقها الحادى من خلفها إلى الأمام فى طريق الفراق .

أعرضت : عرضت نفسها أى ظهرت . اليمامة : بلاد اليمامة .

اشمخرت : طالت أى ظهرت معالمها عاليات . أسياف : جمع سيف .

مصلتون : جمع مصلت ، وهو من يصلت سيفه أى يشهره مخرجا له من غمده .

أنظرْنَا : أخّرْنا . نورد : نرسلها (للحرب) .

نصدرهن : نعود بها (من الحرب) . الرايات : جمع راية .

الغر : المشاهير كالغر من الخيل أى المشهورة منها . ندين : نخضع .

المحجَرين : الضعاف الذين حوصروا فاستسلموا .

. . . ولم يحزن حزنى (أيضا) العجوز التىَ فقدت تسعة من أبنائها ووارتهم التراب . . لقد تذكرت الصبا (ملعبنا معا) واشتقت لما رأيت إبلها تحملها فى العشى وقد حداها الحادى . . وظهرت اليمامة لى (المقر الذى ستنتهى عنده رحلة الحبيبة) مثل أشباح تشهر سيوفا (كأنما تصدنى عن الذهاب إليها) .

. . . (وها نحن فى جَلدنا مع فراق الحبيبة . . . ألسنا قادرين على فراقك يا أبا هند) . . . فأخّرنا قليلاً أبا هند نَقُلْ لك القول الفصل اليقين ولا تعجل علينا (بالعدوان) فنحن رجال حرب اذا ذهبنا للقتالَ برايات بيضاء عدنا بها حمراء قد ارتوت من دماء الأعداء . . . ولنا أيام (العرب تسمى حروبها أياما) مشهورة طويلة (بما كان فيها من قتال) لأننا أبَيْنا أن نخضع للملوك فكم سيد توج ملكا حاميا لقومه (غلبناه . . .) .

(٢٧) تَرَكْنَا الخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا

---

(١) وتروى : وأيام لنا ولهم طوال .

(٢٨) وَأَنْزَلْنَا الْبُيُوتَ بِذِى طُلُوحٍ إِلَى الشَّامَاتِ تَنْفِى الْمُوعِدِينَا

(٢٩) وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَىِّ مِنَّا وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

(٣٠) مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُوا فِى اللِّقَاءِ لَهَا طَحِينَا

(٤١) يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِىَّ نَجْدٍ وَلَهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِينَا

(٣٢) نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا فَأَعْجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا

عاكفة : مقيمة (عنده) متفرغة (لقتاله) . مقلدة : متوجة (بأعنتها) .

صُفُونا : جمع صافن وهو الجواد الذى وقف على ثلاث قوائم وثنى الرجل الرابعة بسبب شدة القتال والتعب .

ذو طلوح : موضع .

الشامات : موضع آخر .

الموُعد : المُهَدِّد والعدّو .

هرت منا : خافتنا وكرهتنا .

شذّبَ : هذب الأغصان ونفى الشوك .

قتادة : شجرة شوك .

من يلينا : من يفخر علينا .

وعبارة : (شَذَّبنا قتادة من يلينا) مَثَلٌ يُضْرَب للدلالة على كسر شوكة القوى .

الرحى : الحجارة التى تسحق القَمح ويراد بها هنا الحرب .

الثفالة : خرقة أو جلدة تفرش تحت الرَحى ليسقط عليها الطحين .

اللهوة : حبّات القمح تلقى فى فم الرحى . قضاعة : قوم .

شرقى نجد : تروى شرقى سلمى ، وفى الحالتين يريد أرض قضاعة .

القرَى : إكرام الضيف .

أنَ تشتمونا : خشية أن تشتمونا ، حيث حذف المفعول لأجله وهو خشية أو مخافة .

. . . ذلك الملك هزمناه وتركنا الخيل فى حصاره عليها أعنتها ، وجعلنا ـ رغما عنه ـ بيوتنا من ذى طلوح إلى الشامات بعد طرد كل الأعداء من هذه المنطقة ، وقد خافت كلاب الحى منا (يريد كل من وجد فى الحى) فنحن نكسر شوكة كل عدو قوى لأننا متى ننقل رحى حربنا يكون العدو طحينها ، ونجعل أرض قضاعة فرشها ، وقضاعة نفسها على كثرتها لن تكون إلا قبضة قمح تلقى فى رحى حربنا . . . حقا لقد عجلنا بهزيمتكم كما يعجل الناس بقرى الضيف (ويعبر الشاعر عن ذلك بطريقة ساخرة إذ يجعل الأعداء أضيافا ويجعل قتلهم قرًى ، ويجعل سبب القتل هينا وهو الخوف من شتيمتهم وذلك فى البيت ٣٢ : حيث يقول جعلناكم بمنزلة الضيوف فعجلنا قراكم وإكرامكم خوفا من ألسنتكم .

(٣٣) قَـرَيْنَاكُمْ فَـعَـجَّلْنَا قِـرَاكُمْ قُـبَـيْلَ الصُّـبْحِ مِـرْدَاةً طَحُـونَا

(٣٤) نَعُـمُّ أُنَاسَنَا وَنَعَفُّ عَنْهُـمْ وَنَحْـمِـلُ عَنْهُـمُ مَـا حَـمَّلُونَا[1]

(٣٥) نُطَاعِنُ مَـا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّـا وَنَضْـرِبُ بِالسُّيُـوفِ إِذَا غُشِـينَا[2]

(٣٦) بِسُـمْـرٍ مِـنْ قَنَا الْـخَطِّيِّ لُـدْنٍ ذَوَابِلَ أَوْ بِبِـيضٍ يَخْـتَلِينَـا

(٣٧) كَـأَنَّ جَـمَـاجِمَ الأَبْطَالِ فِـيهَـا وُسُـوقٌ بِـالأَمَـاعِـزِ يرْتَمِـينَا

(٣٨) نَشُقُّ بِـهَـا رُؤُسَ الْقَـوْمِ شَـقًّـا وَنَـخْـتَلِبُ الـرِّقَـابَ فَـتَـخْـتَلِينَا

(٣٩) وإِنَّ الضِّـغْنَ بَعْـدَ الـضِّـغْنِ يَبْـدُو عَلَيْكَ وَيُـخْـرِجُ الدَّاءَ الدَّفِـينَا

المرداة : الصخرة التى تكسر بها الصخور وهى مستعارة هنا للحرب وقد وردت هذه الكلمة من قبل فى البيت ٣٦ من معلقة طرفة مضافة إلى صخر، إشارة إلى تحطيمها لغيرها من الصخور مما يؤكد دقة استعارتها للحرب فى تدميرها للصخور الإنسانية .

طحونا : كثيرة الطحن ، وهى صيغة مبالغة من طاحن .

نَعُمُّ (أناسنا) : نعم (أناسنا) بالخير والنعمة .

نَعَفُّ عنهم : لعله يريد ما قاله عنترة : «وأَعَفُّ عند المغنم» وعموما لا نطلب منهم شيئا بل نتنازل لهم عن نصيبنا .

نطاعن : تُجْبِرُ (عدونا) على القتال والمطاعنة .

ما تراخى : كلما تباعد (العدو عن قتالنا) .

غُشِيناَ : دنا بعضنا من بعض وتقارب يقصد التحامهم عن قرب مع العدو .

بسمر : الباء متعلقة بالفعل نطاعن فى البيت السابق أى نطاعن بسمر أى برماح سمر والسمر من الرماح أجودها لنضجها من منابتها .

قنا : جمع قناة ، وهى الرمح .

الخطى : نسبة إلى الخط ، والخط ميناء بالبحرين اشتهر أهله بصناعة الرماح .

---

(١) البيت ٣٤ يروى :

ندافع عنهم الأعداء قدمـا ونحمل عنهم ما حملونا

(٢) البيت ٣٥ يروى :

نجالد ما تراخى القوم عنـا ونطعن بالسيوف إذا غشينا

(أو) نطاعن ما تراخى الصف عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا

وعموما يضطرب ترتيب الأبيات بين الروايات بشكل جعلنا نختار رواية الزوزنى دون إشارة للاختلافات التى تتجاوز الحدود العادية . . .

لُدْن : لينة ، ويريد باللين المرونة والتوتر للرمح .
ذوابل : بها بعض يبوسة ويريد بها الدقة والصلابة .
ببيض : بسيوف بيض ، والباء تتعلق بنضرب فى البيت السابق : أى نضرب بسيوف بيض .
يختلينا : يقطعن الخلا أى الحشائش مشبها رؤوس الأعداء بالحشائش التى تقطع بالجملة، وفى رواية أخرى : ببيض يعتلينا أى تعلو الرؤوس .
وسوق : جمع وسق ، وهو حمْل البعير .
الأماعز : جمع الأمعز ، وهو المكان كثير الحجارة .
الاختلاب : قطع الشيء بمنجل سكينة قطع الحشائش) غير مشرشر الحافة ، ومثل هذا المنجل يسمى مخلب لشبهه بمخلب الطائر .
تختلينا : راجع كلمات البيت ٣٦ أعلاه .
الضغن : الحقد . الدفين : المدفون : ويريد ما استتر فى القلب .
. . . نعم . . . قريناكم معجلين بهذا القرَى قبل أن يشرف اليوم الجديد بقليل ، وكان هذا القرَى حجارة تطحنكم من حربنا (مشبهًا عنفهم فى الحرب بأحجار الطحين) . . . وليس ذلك إلا لأننا قوم نعم خيرنا أهلينا ونعف عن مطالبتهم بشيء نظير ذلك ، بل فوق هذا نحمل عنهم عبء القتال تارة أو عبء دفع الديات لو جنوا شيئا ، وقتلوا أحدا من الناس . . . . ونحن فى القتال لا نسمح لعدونا بالهرب فلو تراخى عن قتالنا أجبرناه على المطاعنة، وإن التحم بنا فى القتال نضربه بالسيوف . . . فليس لدينا فى الطعن إلا السمر الخطيه الذوابل من الرماح ، وللضرب إلا البيض (المرهفة) من السيوف التى تقطع الرؤوس بالجملة كما يجذ حشيش الأرض . فتصبح جماجم رؤوس الأعداء وقد تطايرت مثل أحمال إبل ترتمى من فوق الإبل على أرض كثيرة الحجارة فيحدث سقوطها رنينا وتكسرا . . . . وهكذا نشق برماحنا رؤوس القوم شقا يحولها إلى جماجم عارية من اللحم ، ونجذ رقاب الأعداء فتطير فى حزم مثل الحشيش يقطع من فوق الأرض . . . وتحس أثناء القتال أن الحقد بعد الحقد يتجلى لك فى الرؤوس المقطوعة ، مخرجا من القلوب بالسيف كل داء استتر فى قلب العدو .

(٤٠) وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يُبِينَا
(٤١) وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ عَنِ الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا

(٤٢) نَجُـذُّ رُؤُوسَـهُمْ فِى غَـيْـرِ بِرٍّ ... فَـمَـا يَدْرُونَ مَـاذَا يَتَّـقُـونَا

(٤٣) كَـأَنَّ سُـيُـوفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ ... مَـخَـارِيقٌ بِأَيْـدِى لاعِـبِـينا

(٤٤) كَـأَنَّ ثِـيَـابَنا مِنّا ومِنْهُـمْ ... خُـضِـبْـنَ بِأُرْجُـوَانٍ أَوْ طُـلِينَا

(٤٥) إِذَا مَـا عَىَّ بِالإِسْنَافِ حَـىٌّ ... مِنَ الْهَـوْلِ الْمُـشَـبَّـهِ أَنْ يَكُونَا

(٤٦) نَصَـبْنَا مِـثْلَ رَهْـوَةَ ذَاتَ حَـدٍّ ... مُـحَـافَظَةً وَكُنَّا السَّـابِقِـيـنَـا

(٤٧) بِشُـبَّـانٍ يَرَوْنَ الْقَـتْلَ مَـجْـدًا ... وَشِـيبٍ فِى الْحُـرُوبِ مُـجَـرَّبِـينَا

يبين : يتضح ويظهر . عماد الحى : أعمدة يقوم عليها بناء الأخبية والخيام .

خرت : سقطت وتهاوت .

الأحفاض : خشبة تقوم عليها الديار ، وتوضع عليها الأمتعة ، وقد تستعار للإبل (فى الرواية المثبتة هنا : عن الأحفاض) أو للمتاع نفسه (فى رواية أخرى : على الأحفاض) .

نمنع : نمنع (من الهرب) . من يلينا : أى من يحاربنا ، ويتبعنا مطاردا بالقتال .

نجذ : نقطع ، وتروى : نحز . بر : رحمة .

يتقون : يتجنبون ويحمون أنفسهم .

المخاريق : ثيابٌ أو مناديلُ تفتل فتلا شديداً حتى تنتصب متوترة يخيل بها الأولاد سيوفا يتقاتلون بها قتالا يحاول كل واحد أن يصيب الآخر أو يتقيه مستعملا المخراق استعمال السيف ، ولازالت توجد هذه اللعبة بين الصبيان فى مصر . وأثناء اللعب بسبب شدة الفتل إذا التقى المخراقان التف أحدهما على الآخر تلقائيا فى اتجاه مضاد للفتل فيتجاذب الأولاد المخراقين . وقد أخذ المخراق محتوى أسطوريا ففى حديث علىٍّ، قال : البرق مخاريق الملائكة (ثم أنشد هذا البيت لعمرو بن كلثوم) ، ويفسر قولَ علىٍّ حديثُ ابن عباس : البرق سوط من نور تزجر به الملائكة السحاب . وقد استمرت لعبة المخاريق فى الإسلام ففى الحديث : أن أيمن وفتية معه حلوا أُزُرَهُمْ (قمصانهم) وجعلوها مخاريق واجتلدوا بها فرآهم النبى ﷺ فقال : لا منَ الله استحيوا ولا منْ رسوله استتروا ، وأمّ أيمن تقول : استغفرْ لهم . وقد استُعيرت كلمة مخراق لكل من : السيف ، الرجل الطويل أو الكريم . خضبن : تم تلوينها بالأحمر .

الأرجوان : درجة من اللون الأحمر . عىَّ : ضَعُفَ .

الإسناف : الإقدام والتقدم . الهول المشبه : الفزع المشتبه فى وقوعه .
نصبنا مثل رهوة ذات حد : نصبنا كتائب وخيلا مثل جبل رهوة ذات شوكة .
محافظة : محافظة (على شرفنا ومجدنا) . شيب : كهول وشيوخ .
. . . فنحن من ورث المجد ، وقد علم العرب (يكنى عنهم بمعد) جميعا ذلك ، كما علموا أننا نحافظ عليه بالقتال حتى يظهر على كل مجد . . . ونحن أيضا اذا تهدمت بيوت الحى على متاعها من الفزع من حربنا نمنع من يحاربنا عن الإبل التى يتجه إليها ليركبها ويهرب عليها (*) .
ونجذ رؤوسهم من غير رحمة فيفزعون فلا يعرفون ما يتقونه منا . . . فكأن سيوفهم وسيوفنا فى القتال لكثرة تشابكها وطعنها مخاريق فى يد صبيان ، وكأن ثيابهم وثيابنا قد خضبت وطليت بصبغة حمراء أرجوانية . . . . (وهكذا نحن) إذا ما ضعف حَىٌّ عن الإقدام من فرط ما يتوقع من هول . . . نصبنا نحن الكتائب والخيل محافظة على مجدنا وكنا السابقين إلى الطعن والقتال بتلك الكتائب (التى تفيض) . . . بالشبان الذين يرون القتل مجدا ، والشيوخ ذوى التجربة فى القتل .

(٤٨) حُدَيَّا النَّاسِ كُلِّهِمُ جَمِيعًا مُقَارَعَةً بَنِيهِمْ عَنْ بَنِينَا
(٤٩) فَأَمَّا يَوْمَ خَشْيَتِنَا عَلَيْهِمْ فَتُصْبِحُ خَيْلُنَا عُصُبًا ثُبِينَا
(٥٠) وَأَمَّا يَوْمَ لاَ نَخْشَى عَلَيْهِمْ فَنُمْعِنُ غَارَةً مُتَلَبِّبِينَا
(٥١) بِرَأْسِ مِنْ بَنِى جُشَمِ بنِ بَكْرٍ نَدُقُّ بِهِ السُّهُولَةَ وَالْحُزُونَا
(٥٢) أَلاَ لاَ يَعْلَمُ الأَقْوَامُ أَنَّا تَضَعْضَعْنَا وَأَنَّا قَدْ وَنِينَا
(٥٣) أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

حُدَيَّا : صيغة تصغير شاذة من تَحدِّيا ، وقد تعنى سَوْقًا (من حادى الإبل) .

(*) هذا البيت (٤١) فى إحدى الروايات يسبق مباشرة البيت (٣٤) بروايته كما وردت فى الهامش ، وفى هذه الحالة يصبح تفسيره أكثر منطقية ، وتصبح نمنع بمعنى نمنع الشر والخطر عما يلينا أى يجاورنا (فى حالة الفزع وتهدم البيوت) ويكتمل المعنى بورود البيت (٣٤) بعده . أما فى الرواية التى أخذنا بها هنا فلا يستقيم معناه إلا بالنظر إلى شىء من التقديم فى الشطرة الثانية التى ينبغى فهمها هكذا : نمنع من يلينا (يطاردنا) عن الأحفاض (ويجب أن تكون الأحفاض هنا بمعنى الإبل رامزة إلى المال ، أى نمنعه عن مالنا) .

مقارعةً : دَفْعًا (من أجل دَفْعِ أبنائهمْ عن أبنائنا).
العُصُب : جمع عُصْبَة ، وهى الجماعة ما بين العشرة والأربعين .
ثبين : منصوب ثبون ، وهى جمع ثُبَة التى قد تجمع على ثُبَات فى الآية (فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا) ، وتعنى الجماعات إذا توزعت كل جماعة فى اتجاه .
نمعن : نسرع فى المبالغة (فى أداء الشىء) ، أو نَجِدُّ (فى ذلك) .
متلبيينا : من التلبب ، وهو لبس السلاح . الرأسَ : الحى العظيم .
جشم بن بكر : يشير لجده .
السهولة : عكس الحزون والحزون جمع حزن وهو الوعر من الأرض .
تضعضع : انكسر وذل . ونينا : من ونى : فتر وتأخر .
يجهل : تأخذه الحمية والاندفاع والجهل بهذا المفهوم هو قانون القبيلة وبه تَسَمَّى العصر السابق لظهور الإسلام الذى ينتمى إليه شعراء هذا الكتاب .
. . . (نفعل ذلك) . . . تحديا للناس جميعا فى سبيل دفع أبنائهم عن أبنائنا . . . لأننا يوم خشيتنا على أبنائنا تنطلق خيلنا جماعات تتفرق فى كل مكان (بحثا عنهم) ويوم لا نخشى عليهم فلأننا نسرف فى الإغارة بكامل سلاحنا . . بحى عظيم من أحياء بنى جشم بن بكر لا يقف فى طريقنا سهل أو حزن . . . فلا يعلم الأقوام ولا يخطر ببال أحد أننا منكسرون أو فاترون عن قتال ؛ لأنه لا يندفع فى حمية وجهل أحد نحونا لأن اندفاعاتنا وجهلنا فوق جهل كل من يجهل .

(٥٤) بِأَيِّ مَشِيئَةِ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
(٥٥) بِأَيِّ مَشِيئَةِ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
(٥٦) تَهَدَّدْنَا وَأَوْعِدْنَا رُوَيْدًا مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مُقْتَوِينَا
(٥٧) فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
(٥٨) إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا
(٥٩) عَشَوْزَنَةً إِذَا انْقَلَبَتْ أَرَنَّتْ تَشُقُّ قَفَا الْمُثَقَّفِ وَالْجَبِينَا

قيل : وزير ، أو أمير ولاية عند ملك اليمن . قطين : خدم أو عبيد .

الوشاة : جمع الواشى ، وهو الموقِعُ بين الناس بالفتنة وبنقل ما يسوء ، وترادف : النمَّام .
مقتوين : جمع مقتوٍ (منصوب وحالة رفعه مقتوون) والمقتوى : خادم الملوك .
القناة : الرمح ، وتستعار للعزة والصلابة .
أعيت على الأعداء : استعصت عليهم .
الثقاف : خشبة خاصة تثقف (تصلح) بها الرماح . اشمأز : نفر .
العَشَوْزَنَة : الصلبة الشديدة ويريد ناقة شديدة مرشحا الاستعارة بتشبيه القناة بالناقة .
الزبون : الكثيرة الدفع بأيديها وأرجلها واشتق منها اسم الزبانية .
أرنت : أصدرت رنينا . المثقِّف : الذى يصلحها بالثقاف .
. . . (فاذا علمت من أمرنا ما علمت) . . فبأى مشيئة (حجة) يا عمرو بن هند نكون خدما لكم وكيف تستمع للوشاة بيننا فتحتقرنا وتستخف بأمرنا . . . (ليكن) هدد ما شاء لك التهديد ، وأوعد ما شاء لك الوعيد إذا كنا خدما لأمك . . . (ألا تعلم) أن عودنا صلب مثل القناة (الرمح) استعصت على الأعداء قبلك ، إذا حاولوا معها بالثقاف وعضها نفرت منه وتحولت إلى ما يشبه الناقة الجموح الصلبة الشديدة إذا ما انقلبت فى توترها ونفورها صوتت منطلقة تشق قفا من يثقفها من جبينه .

(٦٠) فَهَلْ حُدِّثْتَ فِي جُشَمَ بنِ بكرٍ بِنَقْصٍ فى خُطوبِ الأوَّلينا
(٦١) ورِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنْ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ الْمَجْدِ دِينَا
(٦٢) وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً والْخَيْرُ مِنْهُ زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرُ الذّاخِرِينَا
(٦٣) وَعَتَّابًا وَكُلْثُومًا جَمِيعًا بِهِمْ نِلْنَا تُراثَ الأَكْرَمِينَا
(٦٤) وَذَا الْبُرَةَ الَّذِى حُدِّثْتَ عَنْهُ بِهِ نُحْمَى وَنَحْمِى الْمُحْجَرِينَا
(٦٥) وَمِنَّا قَبْلَهُ السَّاعِى كُلَيْبٌ فَأَىُّ الْمَجْدِ إلاَّ قَدْ وَلِينَا
(٦٦) مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنَا بِحَبْلٍ تَجُذُّ الْحَبْلَ أَوْ تَقِصُ الْقَرِينَا
(٦٧) وَنُوجَدُ نَحْنُ أَمْنَعُهُمْ ذِمَارًا وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا

خطوب الأولين : أحداث القرون الأولى .
علقمة بن سيف : أول من نزل بقبيلة تغلب فى الجزيرة .

مهلهل : راجع ترجمة الشاعر .

زهير ، عتاب كلثوم : من آباء الشاعر (عمرو بن كلثوم بن عتاب بن زهير بن جشم ابن بكر) .

ذو البُرة : من كرام بنى تغلب اشتهر بهذا اللقب بسبب شَعر على أنفه مستدير مثل البرة (الحلقة) .

المحجرين : المجبرين على الاستعانة بغيرهم ضعفا وفقرا .

الساعى : صاحب السعى للمجد له وللعرب .

كليب : أخو المهلهل ، راجع ترجمة الشاعر . ولينا : خصصنا (به) .

نعقد : نربط .

قرينتنا : ناقتنا تقرن بناقة أخرى فى حبل واحد . تقص : تقطع العنق .

الذمار : الأرض التى يجب حمايتها (الحمى) .

. . . (فيا عمرو . . .) هل حدثك أحد عن عيب فى جدنا القديم (جشم بن بكر) . . . كلا لقد ورثنا المجد عن آباء كرام . . .

حتى أننا لا قرين لنا لدرجة : أن ناقتنا لو قرنت بناقة أخرى إما تقطع الحبل أو تدق رقبة الناقة الأخرى (وهذا شأننا لو قُرِنَّا بأحد فى مفاخرة أو قتال غلبناه) . . . إننا أمنع (أحصن) الناس أرْضًا ، وأوفاهم بكلمة إذَا عقدوا اليمين (حلفوا) . . . .

(٦٨) وَنَحْنُ غَـدَاةَ أُوقِـدَ فى خَـزَازَى رَفَـدْنَا فَـوْقَ رِفْـدِ الرَّافِـدِينَـا

(٦٩) وَنَحْـنُ الْحَـابِسُـونَ بِذِى أَرَاطَى تَسَفُّ الجِلَّةُ الْخُـورُ الدَّرِينَـا

(٧٠) وَنَحْـنُ الْحَـاكِـمُـونَ إِذَا أُطِعْنَا وَنَحْنُ الـعَـازِمُـونَ إِذَا عُـصِـينَا

(٧١) وَنَحْنُ التَّـارِكُـونَ لِمَـا سَـخِطْنَا وَنَحْنُ الآخِـذُونَ بِمَـا رَضِـينَـا

(٧٢) وَكُنَّـا الأَيْمَنِينَ إِذَا الْتَـقَـيْنَـا وَكَـانَ الأَيْسَـرِينَ بَنُو أَبِينَـا

(٧٣) فَـصَـالُـوا صَـوْلَةً فِـيـمَنْ يَلِيـهِمْ وَصُلْنَا صَـوْلَةً فِـيـمَنْ يَلِينَـا

(٧٤) فَـأَبُوا بِـالنِّهَـابِ وَبِالسَّـبَـايَا وَأُبْنَا بِـالْمُلُوكِ مُـصَـفَّـدِينَـا

(٧٥) إِلَيْكُـمْ... يَا بَنِى بَكْرٍ... إِلَيْكُـمْ! وَأُبْنَا تَعْـرِفُـوا مِنَّا الْيَـقِـينَـا

خزازى : خزازى (وخزاز : فى إحدى الروايات) جبل كانت العرب توقد عليه غداة (صباح) الغارة ، ومن أيام العرب (حروبهم) يوم خزازى . ويرجح أن عمرو بن كلثوم يريد ذلك الجبل لاستعماله كلمات توحى بذلك (غداة أوقد فى خزازى) من غداة ، وبناء للمجهول فى : أوقد ؛ مما يشير لأن كثيرين يوقدون هناك .

رفدنا : قدمنا العون والعطاء (العسكرى) لقومنا العرب النزارية (الشمالية) فى حربها ضد اليمن .

ذو أراطى : ماء . تسف : تأكل (اليابس) .

الجلة الخور : يريد الإبل الجلة الخور أى العظام الكثيرة .

الدرين : حشائش جافة مسودة .

الأيمنين : جمع الأيمن (منصوب ورفعها : أيمنون) وهى عكس الأيسرين ، ويراد بهما أصحاب الميمنة فى الجيش ، وأصحاب الميسرة فيه .

بنو أبينا : لعله يشير إلى قبيلة بكر وهم أولاد عمومة تغلب وكانت القبيلتان يملك عليهما كليب قبل أن تقتله بكر فى قصة مشهورة . وهو هنا يشير إلى ذلك الماضى البعيد عندما قتل على يد كليب - بتغلب عن ميمنته وبكر عن ميسرته - وائل لبيد بن عنق الغسانى عامل ملك غسان على تغلب ليتملك كليب ويسمى ملك العرب .

النهاب : ما نهبوا من غنائم . السبايا : ما سبوا (أسروا) من نساء .

مصفدين : فى الأصفاد أى فى القيود .

إليكم . . . يا بنى بكر . . . إليكم ! نداء للتنبيه والتحذير .

. . . وإننا غداة الحرب والغارة حيث يوقد فى خزازى كنا خير من قدم الرجال والخيل والقتال ، وإننا مَنْ أَبْدَى الصَّبْرَ والجَلَدَ يوم حبسنا نوقنا العظيمة الحجم والعدد فى أرض عين ماء ذى أراضى لا تأكل إلا اليابس حتى انجلى الموقف وخرجنا من الحصار ، . . . وإننا خير الحكام لمن يطيعنا ، ونحن خير من يضرب بيد من حديد من تسول له نفسه العصيان ، . . . ونحن من يتخلى عن أعظم شىء إذا أغضبنا ، . . ونحن نأخذ ما نشاء ، ويوم الوقعة المشهورة التى هزمنا فيها غسان كنا الميمنة وكانت بكر الميسرة ، فصلنا (هجمنا) على من يواجهنا كما حملت بكر على من يواجهها (من عدو) . . . ورجعوا هم بالغنائم والسبايا بينما عففنا عن ذلك ورجعنا بالملوك مقيدين . . . فيا بنى بكر : قفوا قليلا ! ألم تعرفوا حقيقتنا معرفة اليقين .

(٧٦) أَلَمَّـــا تَعْلَمُـــوا مِنَّا وَمِنْكُمْ كَـــتَـــائِبَ يَطَّعِنَّ وَيَرْتَمِـــينَا

(٧٧) عَلَيْنَا الْبِيضُ وَالْيَلَبُ الْيَمَانِي وَأَسْيَافٌ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينَـــا

(٧٨) عَلَيْنَا كُلُّ سَـابِغَـــةٍ دِلاَصٍ تَرَى فَوْقَ النِّطَاقِ لَهَا غُضُونَا

(٧٩) إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الأَبْطَالِ يَوْمًـــا رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَـــا

(٨٠) كَأَنَّ غُضُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ تُصَفِّقُهَا الرِّيَاحُ إِذَا جَرِينَا

(٨١) وَتَحْمِلُنَا غَدَاةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِذَ وَافْتُلِينَـــا

(٨٢) وَرَدْنَ دَوَارِعًا وَخَرَجْنَ شُعْثًا كَأَمْثَالِ الرَّصَائِعِ قَدْ بَلِينَـــا

يَطَّعِنَّ : تتطاعن مع بعضها . يرتمين : تترامى بالرماح والنبال .

البيض : الدروع .

اليلب اليمانى : نوع من النسيج اليمنى يلبس تحت الدرع ويصنع من جلد الإبل .

سابغة : واسعة وهى صفة حلّت محل الموصوف (الدرع) وتعنى الحماية الكاملة لصدر المقاتل . دلاص : محكمة .

النطاق : الحزام المتمنطق به ، ويروى : فوق النجاد (حمائل السيف) .

غضون : تجعدات نتيجة اتساعها وإحكامها فى نفس الوقت (يشير إلى ما يسمى فى مصطلح الخياطين : كراميش) . جون : من الأضداد : فتعنى : الأسود أو الأبيض .

غُدْر : أصلها غُدُر وسُكنَت الدال تخفيفا وتمشيا مع الوزن ، وهى جمع غدير .

تصفق : تضربها بهباتها . الروع : الفزع ويراد به الحرب .

الجرد : الخيول التى رق شعر جسدها وقصر ، ومفردها : أجرد (للمذكر) ، وجرداء (للمؤنث) . نقائذ : مختارة .

افتلى : من الفلو : وهو الفطام وقطع اللبن عن الرضيع ومنه اشتق اسم الفلاة كأنها فطمت عن الماء . ويريد الشاعر أن تلك الخيل ولدت عندنا وشهدنا فطامها ونضجها .

وردن : قصدن الحرب (مشبها لها بورد الماء) .

دوارعا : عليها الدروع ولعله يريد السروج وعدة الحرب . شعثا : بالى المظهر .

الرصائع : جمع رصيعة ، وهى عقدة العنان أو الزمام ، وشبه بها دروع الخيل لصعوبة تمزقها .

. . . وألم تعرفوا حربنا معكم وعلينا الدروع البيض بما تحتها من يلب يمانى ، تلك الدروع ذات الغضون والتشنج التى لو خلعها الأبطال لظهرت من تحتها أجسامهم سودا مخيفة لطول معاناتهم الحرب ولبسهم الدروع رغم أن دروعهم من فوق أجسامهم لامعة غضونها مثل سطح الغدير (النهير) قد رسمت فوقها الرياح غضونا لامعه براقة متماوجة . . . هؤلاء هم نحن . . . . تحملنا ساعة الحرب خيول جرد (لكثرة معاناتها الحرب) نعرفها ونختارها منذ ميلادها . . إنها الخيول التى تبلى دروعها فى الحرب كما تبلى الرصائع فتخرج من الحرب شُعْثاً (والشاعر يشبه أجسام الخيل بأجسام الفرسان ودزوعها بدروعها إذْ جعل الخيولَ جردا نحل شعرها مثلما أسودت أجسام الأبطال كما ألبسها دروعا مثل دروع الأبطال) .

(٨٣) وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آباءِ صِدْقٍ ... وَنُورِثُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِينَا

(٨٤) عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ ... نُحَاذِرُ أَنْ تَقَسَّمَ أَوْ تَهُونَا

(٨٥) أَخَذْنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْداً ... إِذَا لاَقَوْا كَتَائِبَ مُعْلَمِينَا [1]

(٨٦) لَيَسْتَلِبُنَّ أَفْرَاساً وَبِيضاً ... وَأَسْرَى فِى الْحَدِيدِ مُقَرَّنِينَا

(٨٧) تَرَانَا بَارِزِينَ وَكُلُّ حَيٍّ ... قَدِ اتَّخَذُوا مَخَافَتَنَا قَرِينَا

(٨٨) إِذَا مَا رُحْنَ يَمْشِينَ الْهُوَيْنَا ... كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَا

(٨٩) يَقُلْنَ جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ ... بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا [2]

(٩٠) ظَعَائِنَ مِنْ بَنِى جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ ... خَلَطْنَ بِمَيْسَمٍ حَسَباً وَدِينَا

بيض حسان : يريد : نساء بيض حسان . بعولتهن : أزواجهن .

معلم : عليه علامة يتميز بها فلا يفر من قتال .

---

(١) . . . . إذا لاقوا الفوارس معلمينا . . . (فى رواية) أخذن على فوارسهن عهد . . . . . (فى رواية أخرى) .

(٢) يروى بعد هذا البيت بيتا رواه جماعة من الرواة :

إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

وللبيت نفسه رواية أخرى :

إذا لم نحمهن فلا تُرِكْنَا ... لشىء بعدهن ولا بقينا

يستلبن : يسلبون . بيض : سيوف أو دروع .
مقرنين : يقرن بعضهم ببعض أى جماعات فى قيد واحد .
بارزين : ظاهرين فى فضاء الصحراء .
اتخذوا . . . قرينا : أى حالفوا غيرهم ضدنا خوفا من شوكتنا .
إذا مارحن يمشين الهوينى : يريد النساء البيض الحسان (بيت ٨٤) .
يقتن : تلك النساء تقوت أى تقدم الطعام .
ظعائن : النساء محملات على الهوادج فوق الإبل .
ميسم : من الوسامة : أى الحسن .

. . . ورثنا تلك الخيول عن آباء صدق كما نورثها عند موتنا لأبنائنا . . . ونحن فى الحرب تمضى خلفنا نساؤنا بيضا حسانا تحفزنا على النصر خشية أن تسبى فتقسم كالمتاع بين الأعداء وتتعرض للمهانة . . لقد أخذت أولئك النسوان على أزواجهن عهداً أنهم إذا لاقوا كتائب العدو قد عرفوا بشجاعتهم وعدم فرارهم فسوف يسلبون العدو خيله وسلاحه وسيقودون أبطاله فى القيود جماعات . . . فترانا ـ هكذا ـ دائما ظاهرين مبارزين للعدو دون خوف مثل خوف أعدائنا الذين يستعينون بغيرهم لمواجهتنا . . . نبارز هكذا بينما تقدم الطعام لجيادنا نساؤنا وهن يمشين الهوينى مشية السكارى من فرط ما يشعرن بالأمن والثقة فينا ، ويقلن لنا : لستم رجالنا ـ الذين نعرفهم أبطالا ـ إذا لم تمنعونا (تحمونا) . . . أولئك نساؤنا : ظعائن مكرمات لأنهن من بنى جشم بن بكر قد مزجن بالجمال الحسب والدين .

(٩١) وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْقُلِينَا
(٩٢) كَأَنَّا وَالسُّيُوفُ مُسَلَّلَاتٌ وَلَدْنَا النَّاسَ طُرًّا أَجْمَعِينَا
(٩٣) يُدَهْدُونَ الرُّؤُوسَ كَمَا تُدَهْدِى حَزَاوِرَةٌ كَرَاتٍ لاَعِبِينَا
(٩٤) وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ قِبَابًا لِى بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا
(٩٥) بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
(٩٦) وَأَنَّا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا وَأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

(٩٧) وَأَنَّا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنا ... وَأَنَّا الآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا

(٩٨) وَأَنَّا العَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ... وَأَنَّا العَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

(٩٩) وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْوًا ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَرًا وَطِينَا

منع : حمى .

القلين (نصبا) ، القلون (رفعا) : جمع مذكر سالم لكلمة قلة . وهى خشبة يلعب بها الصبيان يرفعونها ثم يديرونها ويلقون بها بعيدا . وقد شبه طيران السواعد التى قطعتها السيوف بتلك الخشبة .

مسللات : أى مسلولة ، أى خارجة من أغمادها .

يدهدى : يدحرج .

حزاورة : جمع حزور ، وهو الغلام الغليظ الشديد .

أبطح : واد به حصى ، ولعله أراد أبطح مكة .

القباب : جمع قبة ، وتروى الشطرة : إذا قبب بأبطحها بنينا ، والقبب والقبات واحد .

العاصمون : من يعصمون الناس من كل سوء .

العازم : عنيف الخصومة . وفى رواية أخرى يتغير شكل البيت :

بأنا العاصمون بكل كحل ... وأنا الباذلون لمجتدينا

والكحل : السنة الشديدة ، والمجتدى : طالب العطاء .

. . . وقد حمى هذه الظعائن حماية لا نظير لها ـ ضرب سيوفنا تطير له السواعد مثل القلين يرميها الصبيان . . . كأننا وسيوفنا خارجة من أغمادها (فى كثرتها وكثرتنا) قد خرجت كل الناس من أصلابنا . فنحنُ فى كَثْرتنَا (تزداد فى العين بسيوفنا مشهرة) كَلَّ الناس فى هذا العالم (وفى الشروح القديمة تشرحَ : «كأنا . . . ولدنا الناس طرا أجمعينا» كالآتى : كأننا بسيوفنا وقدراتنا على القتال آباء للناس جَميعاً سنحميهم بسيوفنا) . . . هؤلاء الناس الغفيرة تدحرج رؤوس الأعداء مثل كرات يدحرجها شبان غلاظ لعبا ولهوا . . . فقد علمت قبائل العرب . . إن البيوت العالية بأبطح هى بيوتنا (قبابنا) . . . وبأننا نطعم إذا تمكنا من أحد وقدرنا عليه كما أننا نهلك إذا أراد أحدهم ابتلاءنا واختبار قوتنا ، وإننا نحمى من أردنا وننزل حيث شئنا ، ونهجر إذا غضبنا ونأخذ مارغبنا وَنَعْصِمُ من أطاعنا ونغلب من عصانا على أمره . . . فنحن فوق الجميع قوة ومنعة إذا وردنا الماءَ نشرب أول الشاربين لا يجرؤ أحد على التقدم علينا فننال الماء صافيا قبل أن يكدره ويملأه بالطين زحام من يشرب بعدنا .

(١٠٠) أَلاَ أَبْلِغْ بَنِى الطَّمَّاحِ عَنَّا وَدُعْمِيًّا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَا

(١٠١) إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

(١٠٢) مَلأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَمَاءُ الْبَحْرِ نَمْلأُهُ سَفِينَا

(١٠٣) إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

الطماح ودعمى : حيان من أحياء العرب .

ماء البحر : تروى : جوف البحر ، أو : ظهر البحر ، أو : متن البحر كما تروى أيضا : ونحن البحر . . . .

سام خسفا : الخسف الذل والسوم : إرهاق الناس وتعذبيهم .

ألا أبلغ (تروى : وسائل) بنى الطماح ودعميا سؤالا عنا : كيف وَجَدْتُمُونَا فى القتال؟ نحن من يأبى الظلم من الملوك إذا ظلموا الناس جميعا ، ونحن من ملأ البر بالرجال فضاق عنا البر ومن ملأ البحر بالسفن فضاق عنا البحر ، . . . فليس هناك من هو أعز منا حتى أن الوليد منا إذ بلغ الفطام تخرله جبابرة الأبطال سجودا وخضوعا .

تعقيب ضرورى

ما أوردناه هو الرواية التى أختارها الزوزنى فى شرحه (١٠٣ من الأبيات) ويليها فى الطول الرواية التى أوردها ابن النحاس (١٠٢ من الأبيات) وتحتوى الرواية الأخيرة على أبيات مشهورة من معلقة عمرو بن كلثوم لم ترد فى رواية الزوزنى المشار إليها.

وتظهر هذه الأبيات فى آخر المعلقة الذى كاد يلتقى تماما فى ترتيب أبياته وسياقها مع الأبيات (١٠١ ـ ١٠٣) من رواية الزوزنى مضيفًا إليها هذه الأبيات الساقطة منها على الوجه التالى:

(٩٥) إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الخسف فينا

(٩٦) نسمى ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

(٩٧) ملأنا البر حتى ضاق عنا ... ونحن البحر نملأه سفينا

(٩٨) سقيناهم بكأس الموت صرفًا ... ولا قوا فى الوقائع أقورينا

(٩٩) ألا لايجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١٠٠) نسمى الغاشمين وما غشمنا ... ولكنا سنبلو الغاشمينا

(١٠١) لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

(١٠٢) إذا بلغ الفطام لنا صبى ... رأيت له الجبابر ساجدينا

ونلاحظ أن البيت ٩٩ هنا يقابل البيت (٥٣) عند الزوزنى، وأن الأبيات ٩٦، ٩٨، ١٠٠، ١٠١ لابن النحاس لم ترد قط فى رواية الزوزنى وهى أبيات مشهورة كثيرة التردد على الألسنة. ومع تقارب الروايتين فى عدد الأبيات إلا أن الفروق بينها جوهرية. وتوجد رواية لابن الأنبارى (ت ٣٢٨)، تعد الأصل الذى استقى منه الزوزنى (ت ٤٨٦) روايته، ومثله التبريزى وإن كان قد اسقط الزوزنى أو نُسّاخ شرحه بين البيت ١٠١، ١٠٢ البيتين:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

أيضًا أسقط الزوزنى بين البيت (٨٩)، (٩٠) بيتا:

إذا لم نحمهنّ فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

ونفهم من كل ما سبق أن روَاية الزوزنى التى أوردنا هى رواية ابن الأنبارى بتمامها مع

نقص يسير غير جوهرى، ولهذا حين نقارنها مع رواية ابن النحاس (ت ٣٣٨)، فنحن ـ فى الواقع ـ نقارن ابن الأنبارى مع ابن النحاس دون الزوزنى لأنهما متعاصران ومتقدمان، وأقرب إلى عصر التدوين والرواة الأول فى ذلك العصر، وعلى رأسهم حماد الراوية (٩٥ ـ ١٨٥ هـ) الذى اختار هذه القصائد وسماها المعلقات.

والمقارنة بين ابن النحاس وابن الأنبارى تنتهى إلى مجموعة من الحقائق الهامة:

(١) أن نهاية القصيدة فى الروايتين واحدة فكانها ذروة منطقية لابد أن ينتهى إليها الحدث الشعرى رغم حرية حركته فى الزمان والمكان كما سنرى.

(٢) أن بداية القصيدة واحدة، وأعنى ببداية القصيدة الأبيات (١ـ ٢٢) حيث ينتهى فى الجزء الذى يقابل بكاء الأطلال والوقوف بها فى القصائد السابقة، ومع الاختلاف فى ترتيب الأبيات فإن السياق لايكاد يختلف.

أن الأبيات الأولى فى الخمر لكنها تتوجه إلى الساقية. والساقية هنا فيها جبروت بل وقدرة على الحرمان (صبنت الكأس عنا) ولكنه حرمان يوحى بعطاء سابق فهى قد صرفت الكأس وكان مجراها اليمين حيث يجلس الشاعر. فالخمر هنا ـ وهى لون من ألوان الغيبة عن الوعى ـ دخول إلى منطقة اللاوعى وتذكر الماضى مرتبطا بالمكان تمامًا مثل الأطلال:

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى فى دمشق وقاصرينا

ومادامت الخمر تنقله إلى الماضى مرتبطا بالمكان مثلما يحدث عند الوقوف بالطلل فإنها تذكره بآخر لحظة فى هذا المكان.. لحظة رحيل الظعائن.

قفى قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

والوصول إلى تلك اللحظة هو التقاء حميم بالهيكل البنائى لباقى المعلقات وبتقاليد القصيدة الجاهلية الطويلة. ولكنه التقاء فيه شىء من الحرية تشبه تلك الحرية التى استبدلت بالأطلال الخمر مع بقاء الوظيفة: وهى عملية التذكر والاعتصام بالماضى ثم الهرب منه فى آن، وتبدو الحرية هنا فى استيقاف وإجراء الحوار مع الظعائن (البيت ٩):

قفى..... يا ظعينا

نخبرك... وتخبرينا

وهذا الاستيقاف يسمح للشاعر بمزيد من الدخول فى الماضى، حيث يتذكر أيام كانت المحبوبة تعرض له جمالها فى خلوة، إذا أمنت عيون الكاشحين (١٣ ـ ١٨).

وهنا تختفى الذات المتكلمة وتغترب عن نفسها لأنها اغتربت عن هذا الماضى الجميل

الذى صار صورة فى الذاكرة فتتحول (الأنا) إلى (الأنت) دون أن يختلف الشخص المشار إليه:

تريك إذا دخلت على خلاء . . . . . .

ومشهد المحبوبة مشهد مكبر يجعل منها تمثالا هائلا سامقا يقف على رجلين من رخام مثل ساريتين والورك من الرِّجل من الضخامة لدرجة تجعل الباب يضيق عنها. إن التكبير محاولة جادة لمقاومة الزمان عندما يمحو صورة الحبيبة من الذاكرة. ولهذا نرى الذراعين والثدى والبطن والروادف والأوراك والسيقان ولا نرى الوجه. إن الوجه مغطى فى منطقة مظلمة من النفس يحاول الشاعر أن يستنقذه بهذا التجسيد والتكبير للجسم فى حركة العين مع الجسم نزولا من الثدى حتى القدم وخلاخيله. إن بدء الصورة بالذراعين:

ذراعى عيطل أدماء بكـــر هجان اللون لم تقرأ جنينا

يعنى الاحتضان. . . . احتضان الذكرى والمحبوبة معا. . . إن من يحتضن امرأة سيحس أولاً بذراعيها يطوقانه ثم بثديها فى صلابته ونعومته ينغرس فى صدره ثم ستتحسس ذراعاه ـ فى احتضان من احتضنته ـ متنى لدنة (ظهرا نضرا طريا)، وستسقط يده فى بطء على نعومة الظهر سقوطا حنونا مستطيلا (ومتنى لدنة سمقت وطالت) لتستقر يده على تكأة توقف سقوطها: إنها الروادف، وسيستقبل ـ أثناء ذلك كله ـ كشحه فى نعومة حانية ـ كشحها فيجن به جنونا ـ وعلى امتداد الكشحين سيلتقى الأوراك والسيقان فى حركة تهتز لها الخلاخيل فى رنين ليس إلا إيقاع احساس الحبيبين الغائبين أحدهما فى الآخر، والغائب عنهما العالم فيملآن الفراغ ويتخلق هذا التمثال المجسم لأحاسيس نقية تتمثل فى اللون الأبيض المسيطر على النص (أدماء ـ هجان ـ العاج ـ بلنط ـ رخام ـ خلخال لأن الخلخال دائما من فضة) دون أن يظهر الوجه لأن المحتضنان لا يرى أحدهما الآخر إذ تستقر رأس كل منهما على كتف الآخر مستريحة بعنقها، ولهذا يظهر مع الاحساس بالذراعين الاحساس بالعنق (عيطل).

وتنتهى الغيبة ويبتعد النص عن الخمر وتنفر الذكرى وتهرب معها الأنت والحبيبة وتعود الأنا إلى حاضرها الحزين:

فما وجدت كوجدى. . . (البيت ١٩، ٢٠) وكما انتقل لبيد من الأطلال مع حلم الذكرى موضحا بشكل مباشر أن الديار لم تكن إلا بعض نوار بقوله (بل ما تذكر من نوار وقد نأت)، فعل عمرو فى البيت ٢٢:

تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حمولها أصلا حدينا

ونفهم هنا أن يقظة الشاعر لم تحمله إلا إلى غيبة جديدة اختلطت فيها الأزمنة فهو عندما رأى الظعائن تتحرك واستوقفها تذكر الصبا (مع المحبوبة) فنحت منه تمثاله، وكما بدأت صورة الظعائن من البيت (٩) ثم اختفت، تعود للظهور فى هذا البيت (٢٢) فى بناء دائرى، وهى تظهر هنا دلالة وليس لفظا: (لما. . . رأيت حمولها أصلا حدينا) والحمول هى الظعائن وتتحول لفظة التفرق إلى (أصلا) أى أصيلا بما يرمز إليه الأصيل من تفرق فتبقى دلالة التفرق دون لفظه كما تظل دلالة الحوار (فنخبرك. . . وتخبرينا) فى الحداء بما يشير لغناء حزين فى مثل هذا الموقف.

وفى هذه البداية يسقط عند ابن النحاس البيتان ٧، ٨ ليأتى البيت ٨ بعد البيت ١٠ (عند الزوزنى أو ابن الأنبارى على حد سواء) ولا يعود البيت (٧) للظهور قط بعد ذلك. كما لا يظهر عند ابن النحاس البيت (١٧). وبمراجعة النصين هكذا أو إضافة البيتين ٧، ١٧ لابن النحاس فى نفس مكانهما عند الزوزنى تصبح رواية ابن النحاس أكثر منطقية وكمالا، لأن اليقين الذى يشير إليه الشاعر سينكشف فى سياق ابن النحاس (المنايا، وعدم علم الغيب) عندما انضم البيت ٨ إلى البيت ١٢ عنده.

(٣) تحدث النقلة الثانية فى القصيدة دون اختلاف بين الروايتين وتبدأ بقوله (البيت ٢٢).

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

إن هذا الجزء يضع «أبا هند» بموازاة الظعائن أو هو يعد ثانيا للظعائن[١]. إن الظعائن تعجلت بالرحيل فاستوقفها ليخبرها وتخبره اليقين وجزء من اليقين الذى أخبر به الظعائن (١١).

بيوم كريهة ضربا وطعنا أقر به مواليك العيونا

فكأنه يخبرها بانتصاره وقومه لأبناء العمومة مما يقر عيونهم. والملك عمرو بن هند يعجل كما تعجلت الظعائن فيستوقفه «فلا تعجل علينا». ثم يطلب منه الانتظار لكى يخبره باليقين. وقد كان تعجل المحبوبة إما لصرم أو لخيانة الأمين فكأنه يحذر الملك من مجافاته وقومه ومن الخيانة (٥) ويصبح اليقين هو تفصيلات لفكرة البيت (١١).

وهى تفصيلات تميل للخطابية المسرفة فى نغمة عالية وتتحول الأبيات التالية إلى خطاب سياسى عنيف ساخن يبالغ فيه الشاعر مبالغة تطرح علينا ما يمكن أن نسميه قانون القوة كمصدر للحقوق فى العصر الجاهلى، وفى شرح ابن النحاس (القسم الثانى/

---

(١) راجع تحليل معلقة الحارث (الحديث عن المقدمة فى القصيدتين).

٨٣٦) يظهر أن القصيدة ألقيت أول مرة فى مجال خطابة، وبعد إلقائها رد عليها الحارث ابن حلزة بمعلقته التى يصفها بنفسه بأنها خطبة حيث «قال الحارث بن حلزة لقومه: إننى قد قلت خطبة فمن قام بها ظفر بحجته على خصمه، فرواها أناسٌ منهم، فقاموا بها فلم يرضهم فلما علم أنه لا يقوم بها أحد، ألقاها بنفسه.» إذن فالقضية قضية خطابة وأسلوب فى الالقاء. ولأن الخطبة سوف تعدد المآثر فإنه لن يضر أن تتقدم بعض الأبيات أو تتأخر لأن الخطابة بجانب التعداد للمآثر تكرر ما تعدد ولهذا تسير ابيات القصيدة حرة فى الفراغ والزمان ـ كما أتصورهما ـ عموديا فى تتاليها بترتيب محدد وفى انتشار عمودى (يبدأ من الرأس نحو الذيل أى من مقدمة القصيدة إلى نهايتها وأردت من قولى الرأس والذيل الإشارة إلى وحدة القصيدة فى كتلة متوترة توتر كائن حى له وراء وأمام) يشغل فراغا هو الحركة نفسها لأن الفراغ لا يدرك إلا بالتلقى الذى هو حركة أيضًا تستوعب فراغ القصيدة تدريجيًا أثناء تشكله بالحركة. ويتصالب مع الحركة السابقة حركة متواقتة مع الأولى وصانعة لها وملونة لأنحائها بخطوط أفقية ورأسية معًا، وإيقاع الحركة السابقة هو الزمان، وحرية أبيات عمرو بن كلثوم بين البداية والنهاية حرية تتمثل فى الآتى:

(أ) اختلاف ترتيب الأبيات فى الروايتين.

(ب) سقوط بعض الأبيات من رواية وظهورها فى أخرى.

(جـ) اختلاف فى الحركة السطرية على مستويات المفردات والتركيب والدلالة.

(د) التكرار لا يلتزم بنفس ما تكرر فى الرواية الأخرى.

ويحكم الحرية السابقة سياقات جزئية داخل النص تكاد تفرض ترتيبًا محددا للأبيات داخلها ونضرب مثلا لذلك الأبيات (٥٤ ـ ٨٣) حيث يتحدث عن سلسلة الأنساب، ونحس أن ما يحكمها هو الترتيب التاريخى لهؤلاء الجدود ولوقائعهم العسكرية. حيث يكاد تتفق الروايتان مع سقوط بعض الأبيات واختلال فى الترتيب بعد الأبيات العشرة الأولى حيث يدخل فى منطقة المآثر المترتبة على عد الجدود والوقائع، وتتوالى هذه السياقات بشىء غير كثير من الاختلاف وتشبه هذه السياقات هيكلا عظميًا حافظ على القصيدة من الضياع من حافظة الرواة.

***

(١) القصيدة تتخذ «نا» رويا لها، وهو صوت مفتوح مشبع يرن صداه فى اتساع صوتى ودلالى. إن «نا» تمثل القبيلة التى تحول الشاعر إلى لسانها وكأنما قد زال أى تناقض بين الفرد ومجتمعه القبلى حتى أننا نعيش فى هذه الروح الرحبة لجماعة متسعة تنقلب لفرط ترددها إلى (أنا) جماعى متميز يفرض نفسه صوتياً ودلاليا بكثرة ورود النون عامة، وبصفة خاصة نون فعل المضارعة لجماعة المتكلمين ثم النون المكررة فى نحن (على سبيل المثال الأبيات ٦٨ ـ ٧١)، وفى أنا (على سبيل المثال الأبيات ٩٥ ـ ٩٨) بجانب الضمير (نا) المتصل الخاص بجماعة المتكلمين.

ولهذا ليس صدفة أن ترخم: الظعينة لتصير: ظعينا (البيت ٩) كما ليس صدفة أن يتحدد المعجم تحدداً يدخل فى هذا النطاق: مثال مادة: (ولى) فى مضارعها أو ماضيها أو مضارع (لان) الشبيه بمضارع (ولى) (الأبيات ٣، ١٦، ٢٩، ٤١، ٥٧، ٥٨، ٦٥، ٧٣) كذلك يترتب على هذا التحدد المعجمى تكرر القوافى فمعظم مادة ولى المذكورة تقع فى القوافى [١] وأمثلة أخرى لتكرار القوافى: دينا (٢٥، ٦١، ٩٠)، بنينا (٤٨، ٨٣، ٩٤)، جنينا (١٤، ٢٠). إننا أمام قبيلة شاعرة تعبر عن نفسها تعبيرا محا الأطلال وأحل محلها الخمر، واستوقف لأول مرة الظعائن وعاتبهم وعاتبوه، وتوقف عن التغنى بمشاكله الخاصة كما وجدنا عند طرفة أو لبيد وغيرهما، والجزء الخاص بالخمر هو الذاتى الذى تذوب ذاتيته فى الضمير (نا) وفى تحويل المشاعر إلى صنم جميل ضخم تعبده الجماعة. إننا بالفعل أمام ضمير جمعى وعمل شعبى.

(٢) تفرض شفوية القصيدة نفسها علينا أثناء قراءتها. إن أبياتها تتلألأ بشىء داخلنا يتحدد بالإيقاع أكثر منه بدلالة الألفاظ لذاتها، والايقاع هنا شديد الخفاء يتشكل من قوالب بنائية أكثر ثباتًا من الألفاظ.

فالشطرة الثانية فى البيت (١٠٢):

وماء البحر نملأه سفينا

يمكننا (طبقا لروايات قائمة فعلا) أن نقول:

---

(١) يلاحظ علاقة "ولى" بالولاء وعلاقة الولاء بفكرة الجماعة فى "نا".

وظهر البحر، أو: ومتن البحر، أو: ونحن البحر.

والشطرة الأولى فى البيت (١٠٣):

إذا بلغ الفطام لنا صبى

يروى: . . . . . وليد

. . . . . غلام

كما يروى: إذا بلغ الرضيع لنا فطاما

والبيت:

نسمى ظالمينا وما ظلمنا

تحل محل نسمى كلمات: قساة، بغاة، طغاة. . . إلخ.

الخلاصة أن النص يحمل إمكانيات تعدد التجليات دون صعوبة، وهذه الصفات هى صفات الغناء الشعبى، فنحن أمام بناء مفتوح لكن له حدود نتحرك داخلها طبقًا لموقف الأداء المتغير الذى يفسر تعدد روايات الراوى الواحد من ناحية كما يشترك بجانب عوامل أخرى فى تفسير تعدد الروايات. وفى النهاية تظهر شفوية النص بكل ما يترتب عليها من نتائج فى معلقة عمرو بن كلثوم مما يجعل هذه القصيدة فى رواياتها ـ بعد أن تستقصى ـ مدخلا جيدا لدراسة شفوية الشعر الجاهلى، وشعبيته بالتالى بدلا من متاهة الانتحال التى تنطلق من تصور خاطئ وهو وجود أصل مثالى لكل الروايات. أى أن كل خلل وانحراف عن هذا النص الوهمى المتصور هو انتحال، وجريمة أخلاقية لا دخل لنا بها عند دراسة الشعر.